

الطفولة

للامام رشاد محمد محبوب

ليسانس ماجستير في الفلسفة والاجتماع

الطفولة دعامة الحياة، والمجر الأول في أسامها، فاذا شئنا أن نعرف مستقبل أمة فلنبحث عنه في أطفالها ، في صحة أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم وعاداتهم ، فهم نتاج الماضي وثمره الجهاد الشاق ، وعنوان الحاضر، ومرآة المستقبل ورجال الغد. فعظمة الأمة وسعادة المجتمع معقودتان بنواصيهم متى نشئوا التنشئة الصالحة ، وربوا التربية الفاضلة ، وإلا كانوا شرا مستطيرا على أنفسهم وأمتهم ، وقديما قالوا "إنك لا تجني من الشوك العنب" .

ولقد دلت التجارب على أن الطور الأول من أطوار الفرد، الذي يتهى بالسنة الخامسة أو السادسة، هو أهم الأطوار وأخطرها في تربية الطفل فالعادات التي تتكون في هذه السن هي الأساس الذي يبنى عليه المستقبل ، ولقد قالوا "من شب على شيء شاب عليه" . وهذا الطور الجليل الشأن تقع تبعته الأولى على عاتق الأم ، ولهذا يجب أن نكبر من شأنها ، وأن نذكر أن الأم هي المربية الأولى لأطفالنا ، فهي تغذي طفلها من دمها أشهراً ، وتسقيه لبنها أشهراً ، وتربيه في حجرها سنين . وما يكتسبه الطفل من أمه بالإعداد الطبيعي والتربية الأدبية والتعليم العقلي قد لا تقوى عليه المؤثرات اللاحقة ، ولا تستطيع أن تمحو آثاره مهما قويت .

فاذا كانت الأم جاهلة لاتعرف من قوانين الصحة إلا الأكل ، ومن آداب التمدن إلا البهجة والتبرج ، ومن العلوم غير الحرفانات والأوهام التي تفسد العقول وتميت التفكير الصحيح ، فإنها تحاول أن تدفع الضرر المودوم عن طفلها بالضرر المحقق ، وأن تدأويه بما فيه الداء ، فتدفع عنه "العين" بالرقية "والوصفة" القذرة ، وحين تنهيه عن العمل القبيح ترهبه "بالقول" و"البعبع" ونحو ذلك مما يربى فيه ملكة الخوف والفرع .

فاذا تكون حالة هذا الطفل المسكين صحيا وأديبا وعقليا ؟ لاشك أنها تكون شرا وبيلا على حاضره ومستقبله .

ولتقابل بين هذا الطفل المسكين وبين آخر أسعدته العناية الإلهية بأمر هي على تقيض ما تقدم ، عاقلة ، مهذبة ، متعلمة ، متحاية بالآداب الصحيحة ، تعلم أن السعادة الحقيقية إنما تكون في حياة الهدوء والبساطة ، وأن الجمال الحق إنما هو في حسن التربية ونظافة البيت ، ولا تخضع لسلطان الخرافات ولا تفرس الحوف والفرخ في نفس طفلها . بل تربيته تربية تجعل عقله غير مقيد بقيود الجهل والوهم ، وتخدم صحته بالسهر على نظافة جسده وملابسه والاعتناء بطعامه وشرابه ، وبقاء الهواء في غرفته ، وتحاشي التأتق والمبالغة في طلب الرفاهية الى حد يتنافى مع الاقتصاد ، وتروضه على الخشونة المقوية للأجسام والأخلاق ، مثل هذا الطفل يشب صحيح الجسم ، خصيب الذهن ، مستعدا لاحتمال متاعب الحياة ومشاق الكفاح فيها ، وما الحياة إلا عمل وكفاح .

إن شئنا للإنسانية رقا وفلاحا ، وجب أن نغنى بحالة أطفالنا الفكرية والمعنوية كما نغنى بحالتهم المادية والصحية . وهذه غاية لا تدرك إلا بدعاية مستمرة وعمل حثيث .

وأهم شيء يجب أن نوجه اليه نظر الأم هو أن تحدد للطفل وقتا معينتا حين تريد أن تطبعه على عادة من العادات . فاذا أرادت مثلا أن تعلمه شيئا من آداب الأكل ، كألا يتكلم وفمه مملوء بالطعام ، أو ألا يكثر من القيام والقعود أو اللعب وقت الأكل ، فعليا أن تختار واحدة من هذه العادات ، وتحدد لتعليمها مدة معينة تراقب فيها طفلها أول الأمر مراقبة يقظة ، بأن تلقته الى أنه خالف ما لفته إياه ، وتصحح تصرفه عمليا ، وتفضل هذا أثناء الأكل ثم تذكره به خلال يومه ، فاذا ما أمضى مدة تحت هذه المراقبة فإنه سرعان ما يتعود هذا النظام ويجرى عليه دائما ، وعلى الأم أن تسير على هذه الطريقة في غير ذلك مما تريد تلقيه إياه .

ولا تنسى أيها الأم أن تحاولتيك تعليم الطفل عدة أشياء في وقت واحد ، أو طليكي منه أن يقوم بما ليس في استطاعته لا ينتج إلا الفشل المحقق ، فعلميه القليل ثم القليل لتستطيعي أن تلاحظيه ، ويستطيع هو أن يعمل ويعتاده .

أما العادات التي يجب أن يألفها الطفل من البداية فهي النظام والدقة في مواعيد نومه واستيقاظه وأكله واستحمامه ورياضته ، وألا تسمح للزائرين والزائرات من الأقرباء والأصدقاء بتدليله ووضعهم على حجر أحدهم أو إحداهن ، كما هي العادة الشائعة عندنا ، وتنقيه من ذراعي هذا الى ذراعي هذه ، وأن تعود الاستقلال والاتكال على نفسه بقدر الإمكان . ويجب أن تتركه يلعب ويجري كما يشاء مع ملاحظتها له عن بعد حتى لا يتجاوز حد المعقول ولا يتعرض للخطر ، فبذلك ينشأ على النشاط والرجولة وتتكون لديه ملكة التفكير .

وإذا ما بلغ الطفل الثالثة من عمره عزّديه أن يغسل يديه قبل الأكل وبعده ، وأعطيه مندبلا ليستعمله ، وارتكبه يأكل ويلبس بنفسه ، وعلميه أن يقول "مشكر" و"من فضلك" وما إلى هذين من التعبيرات التي تصقل ذوقه وأدبه . عزّديه على أن يكون ذا عزيمة قوية يقول الحق ويفعل الخير بلا تردد ويؤدي الواجب بلا توان . وخير وسيلة إلى ذلك أن تكوني أنت مثلا صالحا له وقدوة حسنة . علميه أن يتبع تعليماتك ولا تكافئيه على شيء من الواجب عليه أن يؤديه ، ولا يكن بكاؤه سببا لتحقيق كل رغباته .

ولا تجعليه مغرورا بلبامه أو بشخصه أو بما يملكه من اللعب ، ولا تشجعيه على أن يقول "ده بتاعى" أى هذا ملكى ، فإن هذا مما يطبعه على الأنانية وحب الذات .

اجعلي طفلك يتحمل الألم بصبر وشجاعة ، واستعملي معه الحنان في مكان الحنان ، والشدة في مكان الشدة ، فلا تضربي الكرسي الذي كان سببا في وقوعه مثلا ، ولا تقبلي موضع الألم من جسمه ، ولا تشجعيه على أن يضرب غيره بأن تبدي له استحسانك إذا ما انتصر على طفل آخر ، فإن ذلك يعود الشر وحب الأذى .

واجتهدي أيتها الأم النماضلة ألا تمتلئ أذنا طفلك بالفاظ مرذولة أو قبيحة ، ورددى له في ساعات فراغه وعند ما تداعينه ألفاظ الشرف والسؤدد ، ولقنيه آيات المجد والكرم .

نريد من الأم الجديرة بهذا الاسم الكبير أن تكون ممرضة ومربية ، تربي ابنها وقواعد الطب أمامها ، وتسهر عليه ومصباح العلم يضيء بين يديها ، وإذا ما لاحظت على طفلها ظاهرة لم تفهمها أو ألم لم تدرك سببه سارعت إلى الاختصاصيين من الاجتماعيين والأطباء ، فإن معاملة شؤون الطفولة من أدق المسائل وأعدها وأجدرها بالاستشارة والتدبر .

وهذه هي الحكومة تعين الأم على تأدية رسالتها ، فهي تنفق سنويا أكثر من مائة ألف جنيه على مرا كز رعاية الطفل ، ووزارة الصحة تعنى بالأطفال والأمهات طيلة أشهر الحمل والرضاعة وقد جعلت إلى جانب مرا كز رعاية الطفل مدارس للولادات والزائرات الصحيحات ، وجهودها مستمرة في سبيل حماية الطفولة .

وقريبا سنرى المراكز الاجتماعية الثروة التي قررت وزارة الشؤون الاجتماعية إنشائها في أول السنة المالية الجديدة ، وهذه ستقوم على أحسن وجه برعاية الأمومة والطفولة في القرى .

وهنا يجب أن نلفت الأنظار إلى ناحية لنا أهميتها الكبرى في نشأة الطفل وتكوينه ، وهي تأثير الأمراض الوراثية في الفرد جنينا ووليدا وشابا وشيخا ، وأن الطفل قد يرث عن أبويه أمراضا ربما كانت أشد فتكا من الأمراض المكتسبة .

وإذا كان يخيل لنا أحيانا أن بعض شباننا وشيوخنا هم مجاميع أوبئة متحركة ، فإن هذه الأوبئة في الغالب هي تراث الطفولة ، ولذا أجمع الأطباء على ضرورة الحيلولة بين المعتادين وذوى المعاهات الدائمة وبين الزواج ، لكيلا ينكب المجتمع بمزيد من المرضى والمصابين ، فلا يجوز لمن كان مصابا بمرض سرى أن يتزوج ما دام المرض متغلغلا فيه . ذلك لأن هذه الأمراض تهدم سعادة الحياة الزوجية ، وتضعف الحيوية ، وتحل روابط السرور والسعادة في الأسر ، وهي سبب كثير من العمليات الجراحية التي تعمل للرجال والنساء ، ومضاعفاتها وعواقبها تجلب صنوفا من العذاب تفقد الزواج كثيرا من جماله ولذته ومرحه .

وتلى الأمراض السرية الأمراض الأخرى المزمنة ، فإن هذه يجب أن يحسب لها أعظم حساب قبل عقد القران ، فلا يجوز أدبيا ولا اجتماعيا لمن كان مصابا بمرض عقلي أو بدني عضال كالسل أو مرض القلب أن ينتج للوطن أطفالا مشوهين أو بلهاء أو ضعفاء .

من الظلم أن نورث أبناءنا أمراضا لا ذنب لهم فيها ، وأن نبعث بهم إلى وجود كله مقم وعلل وشتاء . وإذا كانت قوانين الوراثة غير مطردة فاحتمال الخطر في موقف كهذا يستلزم الحيطه والحذر ، ومن حق المجتمع أن يشرف على أعضائه ويستأصل العناصر الفاسدة ، ولا يسمح لها بالنمو والانتشار ، وكل رجل كملت نفسه وسما ضميره وبعد نظره ، لا يمكن أن ينجي على فلذة كبده ، وينقل مرضه إلى أحب الناس إليه .

وما دام كان للطفولة هذا الشأن العظيم في بناء الوطن وتكوين لأمة فعلينا جميعا أن نحسن تأسيس البناء ونعير الطفولة أوفر قسط من عنايتنا . وإن شعبا يهمل أمر أطفاله بلخدير ألا يظفر برجال أصحاء أقوياء .

رشاد محبوب